

وركود، وشهرزاد أمامه مطرقة مغرقة في القراءة كأنها لا ترى شيئاً ولا تحس شيئاً، وهي مع ذلك تختلس النظرة إلى الملك بين حين وحين تمد إليه طرفها لترده عنه، كأنما تراقبه حريصة على ألا يشعر أنها تراقبه.

وقد أخذ ضوء الشمس يضعف شيئاً فشيئاً، وكأن النهار أحس برد الموت يتمشى فيه، فجعل يرتدي من الظلمة معطفاً فاحماً قاتماً ثقيلاً؛ ثم يجمد كل شيء ويخمد كل شيء، ويقف الزورق في مكانه كأنما شد إلى قاع البحيرة بسلاسل غلاظ ثقال.

وتنهض شهرزاد فاترة متثاقلة، وتقول في صوت هادئ متكسر: «انظر أيها الملك السعيد فإن النعيم والبؤس دولة بين الناس، ينعم بعضهم ويشقى بعضهم الآخر، وينعم الرجال منهم أياماً أو ليالي من الدهر، ثم يشقى أياماً وليالي أخرى، وينعم الرجل منهم ساعة من نهار أو ساعة من ليل، ثم يشقى سائر ساعات النهار أو سائر ساعات الليل، وقد أخذت بحظك من النعيم، وأخذت بحظي منه؛ فلنأخذ الآن بحظنا من البؤس، ولنستقبل الآن نصيبنا من الحزن، ولنحتمل الآن عبأنا من الشقاء.»

وينظر الملك فيرى — ويا هول ما يرى! — يرى على شاطئ البحيرة من يمين وشمال شيئاً يشبه الرياض والجنات وما هو من الرياض والجنات في شيء، شيئاً يشبه أن يكون أشجاراً باسقة في السماء وما هي من الأشجار في شيء، إنما هي أشياء يخيل إلى الملك مرة أنها الشجرة ومرة أنها العُمد قد نُبتت في الأرض وطالت في السماء وامتدت لها فروع تشبه أن تكون الغصون، ونبتت في هذه الفروع زوائد تشبه أن تكون الورق، وقامت على هذه الغصون وفي أثناء هذه الزوائد كائنات تشبه أن تكون الطير، وأسبغ على هذا كله ضوء ذابل فاتر شاحب يشبه أن يكون الظلمة لولا أن العين تنفذ منه إلى ما وراءه في كثير من المشقة والجهد والإعياء، وخرجت من أفواه هذه الكائنات التي تشبه الطير أصوات تريد أن تكون غناء؛ ولكنها لا تبلغ الجو حتى يكون بعضها بكاء وبعضها أنيناً وبعضها حشجة كحشجة الصريع المحتضر. هنالك يذعر الملك أشد الذعر، ولكنه لا يستطيع أن يترجم عما يجد، وإنما هي الرعدة تتمشى في جسمه كله فيضطرب اضطراباً عنيفاً، ثم تستقر لتأخذ الملك بين حين وحين، وقد انعقد لسانه واحتبس صوته وجعلت قطرات من الدمع تساقط على وجهه بين حين وحين، وهو مقبل على شهرزاد يريد أن يسألها أين هو؟ وماذا يرى؟ وماذا يسمع؟ وماذا يجد؟ ولكنه ليس في حاجة إلى هذا السؤال، فقد خلصت نفسه لشهرزاد، وخلصت له نفس شهرزاد منذ وقفا معاً على شاطئ تلك البحيرة في ذلك الجو الموسيقي الرائع وأمام تلك الأسراب من الزوارق البديعة.